عبد الكبير الخطيبي

« الجسد والكلمات »

«حلمت ليلة أمس أن جسدي من كلمات»

أنّى لك ألّا تكون مراهق ذاكرة ما !

فرح الكتابة كان لي المنقذ. أدين بخلاصي للكتب الصديقة ولهذا المراهق ذي اللّمّة المتراخية المسرحُ على الكون نظريه الساخرة. كنا ثنائيا متلازما، وكانت صداقة دائمة التجدد. يرسُمُ فأقرضُ القصائد، يغني فأرتجل أطراف أغنيات، يلتهم القصص المصورة ويستهزل سلطة أساتذة نحاصرهم بدسائسنا المنسوجة من خلاصاتهم المضحكة وهفوات ألسنتهم. واتخذنا الادب ملكا لنا. أصطنعنا الكتابة، أناقة الكتابة، فناً إرهابيا ورباطا سريّا، عبرنا السنين نركب الانبهار فيركّبنا. أصبحتُ كاتبا عموميا، يكلفني الطلاب الداخليون يوم الاحد أن أملي عليهم رسائل غرامية يبعثون بها لصديقاتهم، ويأتونني بصور يحثون بها الهامي. وأنا بين قواميسي مشرق بتجلياتي، وعديد تعدد هذا الهوى التراسلي، أبقى على هذا، حتى الظهر، أدير حساسية العالم.

وأتى الشعر على الباقي. أحببته، بدويا، أول ما أصببت يلفحه المجاز، مجاز كهان الجاهلية خاصة منهم أمرىء القيس، بتعاويذه، الرقيقة. في تلك الفيافي فقد حبيبته وها هو يعبر الزمان ملاطفا فرسه، وينطوي في هبّة القوافي. هيهات ذلك الزمن الحاد إذ يفجؤك الاستمناء في الشارع أو في الماخور، أختفي، لعبا، في الكلمات وأقضم الابيات، اختزنُها في دفتر صغير، اصفرّ على الايام، أقرأه، قبيل النوم. ومن يوم ليوم، بل صورة لاخرى، تتقاطع فيّ آلاف الحيوات فأعج بها ثم أغادرها، تمتلك السعادة فكري والجنون.

وأمارس تمرينا آخر : تجوسُسُ الكتب كيفما اتفق، خلق متاه متقاطع برفق وارتعاش، وأقرأ روايات أؤلف أخرى، فتودى بي هذه الشياطين الساحرة، آن يحين النوم، إلى تعب أسقط من لذته في الاحلام.

وما إن تنته رواية حتى توافيني ومضاتُ ما بين الاسطر توترا عنيدا، فتطربني، وإن بؤسَتْ، رحلتها الواهمة. وها أنا حسب الصدفة ينبوع، زهرة أو فراشة. كانت القراءة تردني إلى الحياة، تردني إلى الموت. يهزني عطر كلمات، فأهتز: وما أشقّه عملا أن تبتلع قاموس الروّى

والمترادفات. غير أني كنت أنتزع الكتاب من مؤلفه وأتخذه لساناً لمرآتي. وأطغى فأفرغ هذا الكتاب أو ذاك من عفنه ولا أستبقي منه، لخيري وخير المؤلف نفسه، إلا بضع جمل أخلدها في دفتر استشهادات، وأنسبها بشحطة قلم عابثة إلى مشاهير الكتاب. ويسكت الاساتذة، فلا مرد إذن لسلطتي ! كنت أشدّ ميلا إلى الكلمات الغريبة التي تلج بي خفايا بلدان بعيدة. لقطات وحسب ؟ لا، بل تجاسد أبكم، جليدي. بعد لحظة السعادة، أُعلّم الكلمات بلون ضَارٍ لأرسخ فيّ علاقاتها النهائية ثم أرددها مغمض العينين. وتنفجر المعاني، فأتجنب الفهم إذ دونه هلاكي. الفهم موت. تلالي الكلمات في عكر شديد، في غش فاضح، فأكتفي به وكمثل الكهف، تولد الكلمات على الرغبة، فترافق خطاي وتضاعف من لألأة عرافتي.

في الباحة كما في قاعة الطعام، كنت أبسم لرفاقي في ذهول. لا أحد يدرك قدرة انشطاري، حيث أعيش منيعا في وحدة كيان طروب. أعلى غطاء السرير فأخفي الشمعة وأنهي باحتداد، بعيدا عن عين المراقب، كتابا أحمله منذ الصباح فيما أحتاط في جيبي بكتاب أو كتابين غيره. في الحياة الجماعية، كنت ألزم الحياد والانضباط. كنت تاعسا، مجرد تاعس، ينفجر ضحكي مفاجئا جنونياً، من لا شيء، فتتسلط الانظار إلى جنوحي. ينطلق أمر المراقب وما أن يبلغني حتى ينفس فقاعات فقاعات. فقاعات. أنسى الكرسي وينعتق الجسد متحررا من العضلات مشعا بين الكلمات.

إيقاع حياتي ! يجدّ الآخرون وأحلم، ينامون وأطالع، أشرد، على الدوام أشرد، وأنظر إلى الآيات الخارجية عبر ثقب. ومساء أتقمص شخصية جوليان سوريل تقمصي لشخصية كل مراهق ألتقيه في الادب، فاقايض بسأمي كبرا وأعوم من المطلق إلى المطلق خالدا. لأنطلقنّ حيا أو ميتا، عابرا الليل مبدعا دينا آخر. وأرسلوا بنا إلى قاعة الطعام فلم يفصلني عن سوريل قيد أنملة. كيف السبيل إلى تلقّم هذه الرواسب العجينية بيد فاترة ؟ اعتادوا ارتحالي وتركوني في قصري الصغير وحين كنت أعود إليهم، احتجب بمرح مفاجيء ملطخا الهواء بحركات رحبة جزلة.

شاعر مريض غادر في مطلع هذا القرن مسقط رأسه، ينهكه السعال، ثم تمدّد على حصير لينام. هل تحدّث عن آية تواطأت وإيّاه ؟ زعزعٌ هبّت على شعره فاندثر في السحر، قال كلمته البكر فكانت البشرية. جبران، ابتدأ صفصافا باكيا ثم حزم أمره، بالهوينى، نبيا. و أعلن ذلك بنفسه : إني ابن زرداشت. وما عتم أن اندمج الاثنان لديّ. فواحدهما توفي شابا، بعلم مسبق منه، وأنا كذلك كنت متيقنا أني سأموت في الشباب. لَحلمٌ ذوى وها هو الآن يهاجر في هذه المراهقة : سأكون أقله قد. متّ ذات في الكلمات. وثانيهما تفرّس حتى النهاية في جنون لا يخمد. وأنا كنت، في الخامسة عشر، أرقي نفسي نبيا منفيا. ولكن إلى أين ؟ فقد كانت رقيتي أقرب إلى الكمود وكتابتي إلى تفاهة البرى.

مساء، كنت أمشي بعد العشاء، منحني الرأس بين قنطرتين، معترضا الهواء بيمناي. كنت أقلد عمق المتوحد. أصادف الآخرين، فارمقهم بحول برىء، يزعجونني فأتملص. صرت آخر، ديمومة غريبة الطور، مسكونة بالورع. أتذرع بذلك فأركن المجتمع جانبا وأنذر للتوحد نفسي. لم يكن عيشي ليل نهار من أحلام مستعارة إلا صورة غائبة عن جسد انسحب الواقع منه وكأنما تجتازه هلوسة رغبة ممتنعة، اهتزازية، لم يسمّها انسان.

كنت، في شلة من أصدقاء لا أقضّ من مضجعهم، أسعى إثر صدمة ما. اعترضَنا التاريخ فقلبناه : ماذا لو انتصر العرب على شارل مارتل وفتحوا أوروبا بأسرها ؟ بهرنا بالغرب فأخذنا نمحو عنا ما يمايزنا ونحاول تفكيك ذاكرته. أيتحتّم علينا الاختيار بين الواقع والحلم !

في هذه السن، اخترت الوحدة والاخوة الادبية. فانتقيت آلهتي خاصة من الشعراء الهامشيين والمنفيين والمجانين والمنتحرين والمتوفين في شبابهم والمسلولين، وعندي أنهم قد غابوا إلى الابد في الالم المحض.

في الصف، كنا نستعرض الشعراء الكلاسكيين، وهم الآلهة الرسميون، فنبتلعهم جرعة جرعة. كل سنة مأساة وملهاة يتعادل بهما ثغاؤنا. وإن آتانا الحظ تدربنا على تقطيع البحر الاسكندري، بوزنه المتسيب، فيحملنا على رقص مفاجىء. هكذا تدور بنا الثقافة. كان أستاذ الفرنسية، ليأخذ بألبابنا، يغلق النوافذ الخشبية ويزعق ذارعاً القاعة. اسلوب استبدادي يعتمده ليسلخنا عن أنفسنا ويهبنا ثقافة صرخة، ركينة، لا ارتداد عنها. وحلت الطقوس في درسه محل الثقافة وصليل الحديد وذلك الغناء الداخلي المتراقص بي. ونفتح النوافذ. آناء برهة ينطلق الجسد من عنانه والشمس تعود، فيعلن : الشرح. وتمتعنا المناسبات فنُمثل بعض المشاهد. كان هذا المسرح، على بؤسه، يخلقنا آخرين، فنتواثب فرحا في معمعة سؤال وجواب. وكان للأستاذ تلميذ، يزعق هو أيضا، فنغتنم الفرصة، لنخدش الصمت عند خمود صيحاته، بصريف مشين، ونرافقه حتى النهاية إلى أقصى اضطرابه، فيهدر الاستاذ : التلميذ التالي. فأتلملم في حيزي الشخصي كالنحلة، أنقل راداري في سهول كورناي القاحلة وأسلطه على البحر الاسكندري المتعرج، لكن دخانه الاسطواني كان يلهث لهاثي. وها هي القافية تنفك من جفافه العُقَدِي. وأتخيل جمّالين ساهين شكّوا سيوفهم في الرمال وأقاموا يرقبون الصبح لاستئناف المسير، كانت شخصيات كورناي تجمدني سأما فلا أمر بمقطع من مقاطعها البطولية إلا وغالبا ما أتجاوزها. في نهاية التمثيلية يجمع كل أمواته وأجزز[1] «قبيلة الكلمات» وأترقب.

---

(1) جزّز الكلمة : ثقلها على جزازات ورنيها.

وأقفز صفا فأكبّ على «سينا» بعد أن أحرق «السيد» بغضا بالابطال، أميل إلى الآلهة الساقطة. لعل ما يربطني ربطا رقيقا إلى هذا العالم الصوتي المهندس بصرامة، إن هو إلا ذكرى مستعادة عن تلك البلاغة الجليدية وتلك التعويذات الهائلة. كان كورناي من أواخر أولئك الشعراء المسلمين وكان عالمه الاقطاعي يماس أساطير الطفولة الشعثاء.

أبوسعك أن تتحدث عن أحدهما دون أن تغرى الآخر ؟ أقصد : راسين وكورناي والتوازن بينهما. كان علينا أن نختار ولم نفعل فينساب كل شيء مهراقا بين هويات متآكلة. ونختلق من ركام هذه الثقافة المتلقنة لوحة من ملصقات. يطرح الاستاذ المشكلة التالية : «افرضوا أن كورياس قتل هوراس وقصوا ما يجري» ... جاري من الامام حلّ المشكلة بأسلوب إداري صرف. بدأ قصته بحرية خالصة : «يشرفني ويؤسفني أن أصرح لك أني قتلت ابنك». الثقافة لم تكن لتشغل هذا الصبي، فيفضل عليها معاشرة الكرسي لمؤخره. كان يكتب كما يحيِّي المدير، يمزج الفن بالرقابة والكلمات باعتباطيتها ويسمي الكتاب باسمائهم الشخصية. فنتركه يتهوى مكانه ونزعجه عنه حين يغتالنا جفاف كورناي فنبرزه.

انهوست بالتقليد فصرت أتمم القصص ببحر اسكندرى ثقيل ملهوج، أتودد به إلى أستاذ الفرنسية إذ أن كورناي طريقي إلى أبدية الآخر. ها الغرب يتحفنا بجناته، فأحلم بأني صفوة مختارة، إله بين الآلهة. جهدت مدة أسبوع قضيته متوحشا وبطلا ملحميا فتوفر لي هول ايقاع كوني. وها أنا بمسرحيتي، مكتملة كانت أم مبتسرة، برفقة كورناي في الدرك الاعلى، لا ريب في ذلك، بينما الاستاذ، وسطا، يوزع الادوار بين الثرى والثريا، والصف أسفل المراتب في نقيق.

كثيرا ما حاولت، في معرض قراءاتي، أن أقنّع الآلهة الرسميين، وأحيدهم بتقليدهم، فتشبهت بهم بدءا وحين نؤت بتلك الجبرة، تحولت تحولا صريحا إلى السخر بهم، وكنت أظنه يعتقني من استعمارهم. كنت أرفق بأصنامي وأعذب الآخرين فأضيف إلى دواوينهم قصائد غير منشورة، أستخرجها من مكتبتي الرحالة، الزخمة، الطاغية. كان هوجو عزيزا عليّ فأصابته المحنة ولزمته قواف تقرقع. أما راسين فأحطته بالحذر وجعلت أقرأه قبل النوم رغم تفليته المضنية والمحيرة للاهواء. كانت هذه الشخصيات تدهشني في الفتها الالمَ والموتَ المُحِبّ، بينما كان جسدي يحن إلى نشيد حنين. وأحب إلي من السموّ الكتابة الهشة أو استشاطة الغضب أو ركوب الوعر. إنها الرومانسية الصرفة الخالصة بذاكرة حشوها أساطير، وآلهة عرجاء، وهاجس إضفاء الشاعرية على كل ما سواها. كنت أعوم فأي تاريخ يتيم أو عدائي يقوى على فكي. كنت أرقب انفكاك الزمن وابتداء حياتي الحقيقية في نشوة ميلاد جديد. يبدو أن المراهقة تستوى عند الصرخة المتماثلة إلى الاهتداء، فأظن والحالة هذه، أني أملت أن يدهمني الواقع. ومضى التاريخ وأنا باق في حجري أراقب نفسي حين تصحو مع الاخرين، أو تدرس أو تقتات أو تنام وأبتسرها بتبصصي المتجهم.

كنت أكتب ويا له من عمل لا يأس فيه يغوى النوم، يغوي التيه. أكتب إذ الكتابة وحدها وسيلة للاختفاء عن العالم، للانتشال من السديم، للانشحاذ بالتوحد. ألا أؤمن بمصير الاموات ؟ فلم لا أركب دائرة أبديتي ؟ كنت أحجم عن الاختيار، إذ لا أريد أن أسدد ثمن هذا الالم، بل أريدني مرحا، حين يفضحني النهار، مرحا لا شك فيه، مقتلَع الجذور، عاصفا.

عرجت فترة، بتأثير شقيقي البكر، على الرواية العربية الحديثة. فكانت قصائدي العربية الاولى. ولم أوقع هذه القصائد. رهانا أنها تنتمي إلى مفهومي عن الريح.

لنومىء الآن الى قصائد المراهقة ولنزعجها قليلا، كما يليق، معرضين عن رعشتها التي صارت الآن الى ذبول. كنت أنشيء القصيدة ذات الادوار والسونيته حسب تتالي الفصول وأشحذ بعدها بأمانة بعض أبيات تهم بالاقلاع أو تأتي مجرجرة أو مصلصلة. فأُطبّق، مثلا، على الورقة شجوى مسائية وأطلق لنفسي عنان الحلم وأجيزها أن تنهي العالم عن النبس فينجلي انصاتي. والحق أن الطبيعة بأكملها كانت في عوني مبيحة نفسها لسلطة خطوطي. ويروح تقمصي الصغير يتوالد بحيث أني أغضّ الطرف بقرف عن قدرتي اللامتناهية. وفي هلامية الخريف بعد أن أوغل في النوم وفي الحلم، انطلق نشوان من نهاية سونيته إلى قصة شجوى. واصديقتاه ؟ هكذا صرخت خلال هذين اليومين، صديقتي، يا صديقتي، العذبة...

ولتشع القافية شاطحة، بأسرع من لمح البصر، فأنتظر، هادئا، أن تثغو على ريشتي، وكثيرا ما تنعجم، أعاجيب أخرى. ذلك نفَس جزل ! فتأتي الكلمة متجملة بعلامات كتابية، خلاصة مرتعشة لانبهاري أمام الورقة البيضاء. ومن كان له أن يجرؤ على منعي من تقفية «بد» و «برد» وأنا اضطرب من جرأتي ؟ من ؟

صدتني هذه البراءة فجعلت أعارض شعر الآخرين وشعري الشخصي، ابتكاري المتقطع النزر كالحوزقة. أقلد بريفير فأختم قصيدتي ببهلوانية كأن أقول : لقد أدرك الفتى كافة ما يدركه كل فتى حين لا يدرك من الفتيات إلا لماما.

ولم يكن بد من نذر هذا الهوى : رفعني الشعر فنذرت نفسي عاشقا. دعوت عشيقتي «الحمامة الوديعة» ونفسي «فرحزين» [1] كانت تنشر في «الخميس الادبي» في صحيفة «ماروك ـــ بريس» وأنا كذلك. ودام النذر سنتين. وقلت : سيتتوج كل شيء بالحب. كنت أشتهيها كلماً فتجيبني تنهدات مبهمة.

وجعلت أطوف بانتظار أن تنجلي الامور وهمّت خَيَالاتي [2] بالإنطلاق فإذا بنسوة

---

(1) فرحزين، كلمة مؤلفة من : فرد وحزين مقابل لـ solitriste

(2) خيال مقابل لكلمة fantasme

يساورني وسواسهن فاترقبهن في منعطف كل شارع. وامتنعن عني إلا صورتهن في قافيتي فأتجسسها ولا يتشكك مخلوق.

أيها المراهق يا أخضر العينين، نفسي أنت تنطقها ثم إلى الماخور فتغور في فروج كفوهة البراكين. حلم مزعج مراهقتك. ها أنت، معتمداً غانية، تطوف فخذا وتتبع ذاهلا دخان لفافة لم تنطفىء بعد وتؤوب اليها، تنزلق على الرصيف انزلاقا لئلا ينفضح أمرك، و لا تراها من جديد إلا وهي مفتحة العينين وأنت خاو.

الآن توافيك «الحمامة الوديعة» للمرة الاولى، فاركض وحثّ الخطى وامسك بيدك صحيفة تستدل بها عليك. ستحضر متوثبة، متماوجة، وسيطالب ثوبها يدك أن ترقص رقصا حقيقيا. فهدّىء من أعصابك وفكّ من عقدة لسانك، يخلق من أحدكما الى الآخر بضع جمل نشوى، رقيقة، ملامسة. ها أنت تخطو خطوة وها هي تتخطاك وترسل يدها في الهواء. تتوقف وها هي جالسة تحفر في المقعد ثقبا. وهل من حال أبأس من حالك وانت تنشر حياتك وترّقبك وصغار تعاساتك ! انها الآن تبتسم ويتيه ثديها بعض التيه فيما يشبه مهزلة محكمة. صحيح أنك تدّعي أنك ستمتلكها كليا الصيف المقبل. غير أنها سوف تتركك في الحديقة، ممسكا باليد صحيفة وسوف ترحل فترة أخرى في ملاقاتها، وسوف تأتي إلى لقائك. وسيخيب الامل بنفاهة فتقف متجمدة، مجموعة الفم، دلتا، توحدا. فاشرق بدعمك وانصرف قل : وداعا أيها الادب التراسلي، أيها الشعر الناهد. وإن بدا لك أن تعاند فحاول فتاة أخرى وغازل هذه الدهقلة العوراء فسوف تضمك اليها وهي تصرف بالاسنان. ولن تحصدا معا، والثوب منها حتى الرأس، إلا العناء. إنها تسعى اثر زوج وأنت ترغب في امرأة فاغتنمها حجة غريبة على مثيلاتها إذا صرت في وضعيات جنونية. هندم فؤادك المولداد في شعرك الفقيد فلن يبقى لك إلا امتلاك الجسد السيد مغالبا نفسك والآخرين. وبعد، أيها المراهق يا أخضر العينين، لك رأس مفكار، التاريخ يترقبك، صدّقني، ولسوف تكون.

فصل من رواية «الذاكرة الموشومة» ــ ترجمة بطرس الحلاق.